علاقة المقدمة بالمتن في كتاب اخبار ابي تمام للصولي

د. عمر محمد الطالب
جامعة الموصل – كلية الآداب

تأليف الكتاب

قد لا يكفي اعتماد سنة وفاة مؤلفين ما مقياساً لتحديد اسبقية تأليف احدهما عن الآخر ، سيما اذا تعلق الامر بمؤلفين ينتميان لعصر واحد ، واشكالية واحدة . فالصولي توفي سنة (٣٣٥) او ما يقرب من هذه السنة (١) . والآمدي توفي سنة (٣٧٠هـ) . لكن هل تكفي مدة خمس وثلاثين سنة من الفرق لترجيح اسبقية «اخبار ابي تمام» للصولي على «الموازنة» للآمدي ؟

الواقع ان هذا المقياس قد يخدعنا احياناً ما لم نتقص الحقيقة من خلال تناوب المؤلفين معاً ونتتبع نصوصهما بتبصر وتدبر وعناية ، خاصة حينما نعلم ان فكرة جمع شعر الطائيين والموازنة بينهما قد راودت الآمدي منذ سنة (٣١٧) كما يذكر في كتابه :

(١) يذكر ابن النديم ان الصولي توفي سنة ٣٣٦هـ ، الفهرست ص ١٥٠ ، وكذلك الشأن بالنسبة للمرزباني في «معجم الشعراء» ص ٤٣١ .

«... انني نظرت في شعر ابي تمام والبحتري في سنة سبع عشرة وثلثمائة ، واخترت جيدهما وتلقطت محاسنهما ، ثم تصفحت شعريهما بعد ذلك على مر الاوقات (١) . افلا يمكن ان يكون الآمدي قد شرع في تأليف «الموازنة» بعد سنوات قلائل تلت هذه السنة ، اي حوالي سنة (٣٢٠هـ) او مايقربها والصولي لا زال على قيد الحياة ؟

وحتى لا نستبق النتائج ، ينبغي في البداية ان نضع المسألة في اطارها الصحيح. فلقد جرت العادة عند النقاد القدامى والمحدثين ان يقدموا الحديث عن الصولي ثم يتبعونه بالآمدي اعتباراً لسنة الوفاة. وقلما انصرفوا بجهودهم إلى بحث اي المؤلفين اسبق : «اخبار ابي تمام» ام «الموازنة» (٢) .

حين نتتبع آراء القدامى الذين ترجموا للصولي والآمدي لا نعثر على رأي صريح يمدنا بسنة تأليف «اخبار ابي تمام» او «الموازنة» وانما يكتفون بذكر تآليف كل ناقد على حده ، وسنة وفاته ، وبعض اخباره . وفي غياب ذلك يكون على الباحث ان يتتبع ترتيب هذه المؤلفات عسى ان يكون في الترتيب ما يفي بالغاية . لكن هذا الترتيب — في معظمه مضطرب — ويختلف من عالم لآخر . فابن النديم مثلا لايذكر كتاب «اخبار ابي تمام» الا بعد ذكر مؤلفات الصولي التالية : كتاب الاوراق في اخبار الخلفاء والشعراء — اخبار ابن هرمة ومختار شعره — اخبار السيد الحميري ومختار شعره — اخبار احمد بن يوسف ومختار شعره — اخبار سديف ومختار شعره — كتاب الوزراء — كتاب العبادة — كتاب ادب الكاتب — كتاب الانواع — كتاب سؤال وجواب رمضان لابي النجم — كتاب رمضان — كتاب الشامل في علم القرآن — كتاب مناقب علي بن الفرات ثم يأتي ذكر كتاب

(١) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ص ٥٥ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٠ — ١٥١

اخبار ابي تمام (١) مما يحمل على الاعتقاد انه الفه في اخريات ايامه التي عرفت بالمحنة والجفاء كما يفهم من قول الصولي في رسالته إلى مزاحم بن فاتك : « ثم ارتني عين الرأي بقية في نفسك منه ، لم يطلعها لي لسانك ، اما كراهة منك لتعبي او اشفاقاً من الزيادة في شغلي،مع ما يتقسمني من جور الزمان ، وجفاء السلطان ، وتغير الاخوان » . (٢)

وفي حديث ابن النديم عن الآمدي ومؤلفاته ، يأتي ذكر كتاب «الموازنة» في الرتبة الرابعة ، اي مباشرة بعد كتاب «المختلف والمؤتلف في اسماء الشعراء» وكتاب «معاني شعر البحتري» وكتاب «نثر المنظوم» (٣)

والمرزباني خير من يمدنا بتآليف الصولي وتصنيفها الصحيح باعتباره احد تلامذته ، لكن كان همه ان يذكر لمن ترجم لهم بعض شعرهم ، لذلك لم يتعرض لذكر استاذه الصولي الا من هذه الناحية (٤) .

وإذا كان ابن النديم قد رتب كتاب «اخبار ابي تمام» في مؤخرة مؤلفات الصولي ، فإن ياقوت الحموي «ذكره مباشرة بعد» اخبار ابن هرمة اي في المرتبة الثانية» (٥) . وحين يترجم للآمدي فإن ترتيبه وتصنيفه لكتاب «الموازنة» يكاد يتفق وترتيب ابن النديم ، اي ان «الموازنة» يأتي بعد كتاب «المختلف والمؤتلف» ، وكتاب «نثر المنظوم» . لكن سنة التأليف تظل — مع ذلك — غامضة .

وقد حاول بعض المحدثين ممن شغلتهم القضية ملامسة الحقيقة من بعض جوانبها ، فالاستاذ احمد امين في تقديمه لكتاب «اخبار ابي تمام» دأب على

(١) أبن النديم الفهرست ص ١٥٠ ١٥١
(٢) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٥ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٥٥ .
(٤) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٤٣١ وما بعدها .
(٥) ياقوت الحموي : معجم الادباء ، ج ١٩ ص ١١١ .

ذكر كتاب «الموازنة» للآمدي قبل «اخبار ....» الصولي ، مما يحمل على الاعتقاد ان «الموازنة» اسبق تأليفاً . يقول : «فألف الآمدي كتاب الموازنة بين ابي تمام والبحتري يتعصب فيه للبحتري من وراء حجاب ، والف الصولي هذا الكتاب (ويعني اخبار ابي تمام) يتعصب فيه لابي تمام (١) .

وقد يبلغ هذا الاعتقاد ذروته حين نرى ان الاستاذ احمد امين ينص في قول آخر على ان «اخبار ابي تمام» جاء ليهذب من سطوة الانتصار للبحتري التي بسطها كتاب «الموازنة» يقول : «وقد مضى زمان كنا لا نسمع فيه الا نغمة الانتصار للبحتري من الآمدي. فكان في هذا الكتاب الذي بين ايدينا الآن ما يعدل هذه النغمة ، ويلطف هذه الحدة ، فتتجاوب النغمتان وتتعادل الكفتان ، ويكون امام القاضي العادل اقوال الخصوم والمؤيدين تامة في غير نقص» (٢) . لكننا حين ننعم النظر في قوله هذا سنجد ان الامر لا يتعلق بعصر المؤلفين ذاتهما ، بل بعصر احمد امين وجيله ، اذ طلع عليهم — كما يبدو — كتاب «الموازنة» قبل ان يظهر كتاب «اخبار ابي تمام» . ومع ذلك لا نعثر في هذه المقدمة ولا في مقدمة الناشرين ما يشير إلى سنة تأليف كتاب الصولي .

اما الدكتور : محمد مندور فيأتي برأي اقرب إلى الدقة وان لم يكن قد اتى على تحديد سنة تأليف الكتابين ، فقد اعتمد اسلوب الناقدين ومنهجهما في التأليف ، وادرك من خلال ذلك ان كتاب الصولي اسبق تأليفاً من كتاب الآمدي :

« والذي لا شك فيه ان الآمدي لم يكتب كتابه ايام عنف الخصومة بين انصار ابي تمام والبحتري ، وذلك لأن ابا تمام توفي سنة ٢٣١هـ ، والبحتري

(١) من مقدمة احمد امين لكتاب «اخبار ابي تمام » للصولي ، ص : أأأه .
(٢) من مقدمة احمد امين لكتاب «اخبار ابي تمام» للصولي ، ص : ي أ

توفي سنة ٢٨٤هـ والمعركة قد احتدمت فيما يظهر بعد موتهما مباشرة حتى بلغت اقصاها اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع ... فالصولي هو الذي يجب ان يتهم بالتعصب لابي تمام ... واما الآمدي فقد جاء بعد ان كان الزمن قد هدأ من حدة الخصومة ،وكان الادباء قد اخذوا في الامتثال حول رجل آخر هو المتنبي . جاء الآمدي إذن بعد تراخي الزمن» (١) .

وهذا الرأي مفيد لأن اثر اللحظة في الكتابة والابداع واضح ، ولا نستطيع التخلص منه ، اذ مهما حاول الناقد او المبدع ان يتحرر من تأثير لحظة الكتابة الا ووجد خيوطاً خفية تجذبه اليه بوعي او بدونه ، وكذلك كان شأن الصولي ، فأسلوبه في هذا الكتاب يتسم بحرارة اللحظة وحدة الاشكالية التي يعالجها ، مما يؤكد — فعلا — ان الكتاب الف في بداية عهد الصراع حول مذهب الطائيين خلافاً لكتاب «الموازنة» الذي يبدو اسلوب صاحبه اكثر رصانة وهدوءاً ، واوضح منهجاً .

وقد تفيدنا ملاحظة الدكتور «محمود الربداوي» في كتابه «الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام» لدعم الرأي السابق يقول صاحب الكتاب «ويعتبر تأليف الموازنة هذا تتويجاً للحركة النقدية التي نشأت حول ابي تمام والبحتري»(٢) ولا شك في ان ما نفهمه من كلمة «تتويجاً» حين ترد في سياق مثل هذا هو انها خاتمة المطاف ونهاية الشيء ، ومعنى هذا ان كتاب «الموازنة» جاء ليختتم ذلك الصراع النقدي حول مذهب الطائيين .

وإذا كنا لا نخالف اصحاب هذا الرأي في النتيجة التي انتهوا اليها ، فإننا نرى ان ايسر طريق لذلك ينبغي ان يتوخى من خلال تتبع فقرات الكتابين معاً واذ ذاك سنجد ان «الموازنة» تمدنا بنصين هامين ، احدهما مباشر والثاني

(١) د. محمد مناور : النقد المنهجي عند العرب ، ص ١٠٣ .
(٢) د. محمود الربداوي : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، ص ١٦٨ .

غير مباشر ، لا يدعان مجالا للشك ان «اخبار ابي تمام» اسبق في التأليف من «الموازنة» . ونبدأ بالنص غير المباشر ، الذي لا نشك في ان الآمدي يشير فيه إلى الصولي يقول : «وبعد : فلم لا تصدق نفسك ايها المدعي ، وتعرفنا من اين طرأ عليك العلم بالشعر ؟ امن اجل ان عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء ؟ وانك ربما قلت ذلك وتصفحته او حفظت القصيدة والخمسين منه ؟ فإن كان ذلك هو الذي قوى ظنك ، ومكن ثقتك بمعرفتك فلم لا تدعي المعرفة بثياب بذلك ورحل بيتك ونفقتك ؟ فانك إنما تستعمل ذلك وتستمع به ، ولا تخلو من ملابسته ، كما لا تخلو مني كثير من الاوقات من ملابسة الشعر ودراسته ، حتى اذا رمت تصريف دينار بدراهم او تصريف دراهم بدنانير او ابتياع ثوب او شيء من الآلة لم تثق بفهمك ولا علمك حتى ترجع إلى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك ، ولم لما خفت الغبينة في مالك فأذعنت وسلمت واقررت بقلة المعرفة لم تخش الغبينة والوكسى في عقلك فتسلم العلم بالشعر إلى اهله ؟ فإن الضرر في غبن العقل اعظم من الضرر في غبن المال» (١) .

تفيدنا فقرات النص في الكشف عن الشخص الذي يشير اليه الآمدي . فالمعروف ان الذي اشتهر بهذه الخزانة التي تضم عدداً هائلا من الكتب في تلك الفترة هو الصولي ، حتى صارت خزانته تلك محط اهتمام الناس وفيها يقول ابو سعيد العقيلي .

إنما الصولي شيخ ... اعلم الناس خزانه
إن سألناه بعلم ... نبتغي عنه الابانه
قال يا غلمان هاتوا ... رزمة العلم فلانه

(١) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ص ٤١٦ .

والمعروف ايضاً ان صوت ورأي الصولي يبدو خافتاً في كتابه «اخبار ابي تمام» فهو دائم الرجوع إلى آراء شيوخه والعلماء السابقين عنه والمعاصرين له يستمد منهم الآراء حول شعر واخبار ابي تمام ، كذلك يكثر عنده فعل الاخبار ومرادفاته : (اخبرني — حدثني — سمعت — روى ... الخ) بحيث تذكرنا طريقته بطريقة ابن سلام في كتابه «طبقات فحول الشعراء» ، وبالتالي لا نعثر للصولي الا على فقرات قليلة تعد من صميم رأيه . ولعل هذا ما كان الآمدي يشير اليه بقوله «لم تثق بفهمك ولا علمك حتى ترجع إلى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك» .

وإذا كان النص غير المباشر — يحمل اكثر من تأويل ، فإن النص المباشر الذي يصرح فيه الآمدي باسم الصولي لا يدع اي مجال للشك في ان المعني هو ابو بكر محمد بن يحيى الصولي . ففي معرض حديثه عن اخطاء ابي تمام يورد له قوله :

دار أجلّ الهوى من لم ألمّ بها في الركب الا وعيني من منائحها

ويعلق عليه بقوله : «وهذا لفظ محال عن وجهه : لأن «إلا» ههنا تحقيق وايجاب ، فكيف يجوز ان تكون عينه من منائحها إذا لم يلْم بها ؟ وإنما وجه الكلام ان يقول : «دار اجل الهوى عن ان الم بها الا وعيني من منائحها ، او اجل الهوى عن ان الم بها وليس عيني من منائحها» وقد كنت اظن ان ابا تمام على هذا نظم الشعر ، وان غلطا وقع في نقل البيت ، حتى رجعت إلى النسخة العتيقة التي لم تقع في يد «الصولي» واضرابه ، فوجدت البيت في غير نسخة مثبتاً على هذا الخطأ » (١) .

فهل بعد هذا النص الصريح والتصريح باسم الصولي من امر آخر يمكن ان يرشدنا إلى اي المؤلفين اسبق ؟ وإذن يمكن التسليم — انطلاقاً من هذا —

(١) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

ان الصولي والآمدي وإن كانا متعاصرين ، وان مؤلفيهما عالجا اشكالية واحدة ، الا ان السبق في تأليف «اخبار ابي تمام» ظاهر لا غموض فيه . وإن كان من المتعذر حالياً ضبط سنة التأليف بشكل دقيق .

لكن السؤال المطروح هو : هل سيتمكن الصولي من تأسيس خطاب نقدي متميز يسهم في قضية الصراع حول ابي تمام منهجاً واصطلاحاً ؟ .

علاقة المقدمة بالمتن :

قد يكون عنوان الكتاب مؤشراً على الغرض الاساس والشغل الحقيقي الذي كان يشغل بال الصولي ، وهو إيراد وذكر مجموعة من الاخبار المتصلة بأبي تمام ، مما يجعل الكتاب مندرجاً ضمن كتب السير والاخبار كما يرى د. إحسان عباس : «والحق ان كتاب الصولي (ويعني اخبار ابي تمام) — رغم موقفه الدفاعي — يعد في كتب السيرة» (١) . غير ان احتواءه على بعض الملاحظات والمواقف النقدية خاصة في مقدمته جعلت دارسين وآخرين يصنفونه ضمن كتب النقد ، كما يرى ذلك عبدالرؤوف ابو السعد : «والكتاب يستمد اهميته في تاريخ النقد من مقدمته التي تشكل ظاهرة متمردة ورافضة لمذهب الطبع وعمود الشعر» (٢) . ولا غرابة في هذا التأرجح في تصنيف الكتاب ، تارة ضمن كتب السير والتراجم . وتارة اخرى ضمن كتب النقد . فمعظم كتب التراث العربي القديم جاءت متنوعة الاصول ، متعددة المشارب والافكار : فقد كان الكتاب القديم يضم بين دفتيه عدداً من الالوان المعرفية ، فتجد النحو إلى جانب البلاغة والنقد والاخبار والمنطق ... الخ . إنها خاصية من خصائص الكتابة في القديم وقد تعد مزية في رأي البعض لأنها تدل على

(١) احسان عباس : تاريخ النقد الادبي ، ص ١٥١ ، وينظر كذلك كتاب د. محمد مندور النقد المنهجي عند العرب ص ٩٣ .

(٢) د. عبدالرؤوف ابو السعد : مفهوم الشعر في ضوء نظريات الفكر العربي ص ٢٣٣ .

«موسوعية المثقف»القديم ، كما انها قد تعد عيباً لانها لم تسمح بتمايز الخطابات وتحديد قوانينها . ولكنها — على اية حال — حقيقة لا مناص للافلات منها، ولا فكاك من شروطها ومعطياتها ونتائجها . لكن ما ينبغي ان يبحث فيه هو: كيف تخدم السير والاخبار الخطاب النقدي ، وإلى اي حد تسهم في تشكله وتبلوره ؟ سؤال عريض وكبير ويمكننا ان نختزل الجواب عنه في ان الاخبار والسير في بعض الكتب النقدية تصير مهيمنا ، تمتص النقد وتجعله مبعثراً لا يظهر الا لماماً ومن ثم نفهم لماذا يتشكل الخطاب النقدي القديم امامي رسائل او مقدمات او فقرات موزعة هنا وهناك .

ويهمنا ان نعمد إلى مقدمة الصولي « لأخبار ابي تمام » لنبحث علاقتها ببقية المتن . فالمقدمة — كما هو معروف — عبارة عن رسالة من الصولي إلى «مزاحم بن فاتك» افتتح بها كتابه ، وذكر فيها اسباب التأليف ، ولم يتورع من ذكر السبب الحقيقي وهو رغبته في الدفاع عن شاعره المفضل والانتصار له (١) . فقد نظر الصولي في موقف الناس من ابي تمام فوجدهم قسمين : آ — قسم معه ، وهم العارفون بالشعر معرفة حقيقية وهم فئتان : الاولى تعطيه حقه وموضعه في الشعر ، والثانية تبالغ فتجعله نسيج وحده وسابقاً لا مساوي له .

ب — قسم عليه : وهم المدعون المقلدون الذين لا دليل ولا حجة لهم . ولذلك انتدب الصولي نفسه ليقف موقفاً عادلا ، لا يذهب فيه مذهب المغالين . ولا ينحدر فيه إلى ادعاء المدعين . لكن الحقيقة التي يدركها كل متتبع لنصوص وفقرات كتابه يدرك انه لم يكن — بحق — الناقد العادل . لقد حدد الصولي في مقدمة كتابه الاسباب التي دفعت خصوم ابي تمام

(١) ينظر «اخبار ابي تمام» للصولي ، ص ٤ — ٥ .

لمعاداته ويحددها في الفتهم للأشعار القديمة وسهولتها عليهم ورواية الأئمة لها في مقابل انعدام رواة للشعر المحدث . كما تضمنت المقدمة بعض الملاحظات النقدية افرزت لنا بعض المقاييس التي يعتمدها الصولي في التفضيل (١) فضلا عن مناقشته لبعض الابيات الشعرية لابي تمام عابها بعض العلماء عليه، ومحاولة من الصولي لابراز روح العالم الذي لا يدعي ما يدعيه من سماهم « «بالمتحلين» بالادب» (٢) . اقر في مقدمته ما للقدماء من فضل على المحدثين ولكنه — كعادته — لا يأتي على ذلك الا ليمهد لغرضه الاساس وهو الانتصار للشعر المحدث ورائده ابي تمام : وستكون لنا وقفة عند هذه الملاحظات والمواقف النقدية في مكان نبحث فيه «ملامح الخطاب النقدي» .

بعد المقدمة ينتقل الصولي إلى فصل عنوانه بما يلي : «ما جاء في تفضيل ابي تمام » ، وهو — إن صح القول — فصل اقرب إلى طبيعة المقدمة منه إلى بقية المتن الاخباري ، فقد عمد فيه الصولي إلى إثبات نص حسن لابي تمام وتعليق بعض الكتاب والادباء والشعراء عليه . غير ان اللافت للنظر في هذا الفصل هو ما يمكن تسميته «باستغلال الصولي لسماحة البحتري ووفائه لاستاذه ابي تمام» حيث يكرر نصوصاً على لسان البحتري يشهد بها على فضل ابي تمام واستاذيته . يقول الصولي : «حدثني سوّار بن ابي شراعة قال ، حدثني البحتري قال : كان اول امري في الشعر ، ونباهتي فيه ، اني صرت إلى ابي تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعري ، وكان يجلس فلا يبقى شاعراً الا قصده وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعري اقبل علي وترك سائر الناس، فلما تفرقوا قال : انت اشعر من انشدني ، فكيف حالك ؟ فشكوت خلة، فكتب لي إلى اهل معرة النعمان ، وشهد لي بالحذق ، وقال : امتدحهم ،

(١) ينظر «اخبار ابي تمام» للصولي : ص ١٢ و٢٥ .
(٢) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٦ .

فصرت اليهم فاكرموني بكتابه ووظفوا لي اربعة آلاف درهم ، فكانت اول ما اصبته » (١) . وفي نفس المعنى يورد خبراً آخر في جمع ضم البحتري وعبدالله بن الحسين بن سعد ومحمد بن يزيد النحوي حيث دار الحديث بينهم عن معنى تعاوره البحتري وابو تمام وحكم للبحتري فيه بأنه اشعر من ابي تمام ، فكان رد البحتري عن هذا التفضيل والتقديم : «كلا والله ذاك الرئيس الاستاذ ، والله ما اكلت الخبز الا به » (٢) . بهذا الاسلوب وهذه الطريقة يحاول الصولي ان يوقع قارىء في فخ التعصب لابي تمام وليس يخفى على كل باحث انه اسلوب لا يصمد في وجه طرق البحث العلمي الرصين الذي يتحرى حقيقة النصوص وسياقاتها .

وينتقل الصولي بعد ذلك إلى فصل خاص عن اخبار ابي تمام مع كل ممدوح من ممدوحيه (احمد بن ابي داؤد ، خالد بن يزيد الشيباني ، الحسن بن رجاء ، الحسن بن وهب وابن الزيات ، آل طاهر بن الحسين ، ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، احمد بن المعتصم) . ومعظم هذه الاخبار ينصرف الحديث فيها للقاء الشاعر بممدوحه وانشاده اياه ، وبعض الحوارات التي جرت بينهما او بين ابي تمام وبعض حضور المجلس . وكان الصولي في كل هذه اللقاءات — حريصاً على ذكر ما يرفع من شأن ابي تمام ويعلو من قدره . ولعل أكمل صورة لذلك ما جاء على لسان ممدوحه الحسن بن رجاء الذي انشد بحضرته قصيدته التي يقول فيها :

كفى وغاك فإنني لك قالي ليست هوادي عزمتي بتوالي

فلما بلغ بيته :

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٦٦ .

(٢) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٦٧ . وينظر لنفس المعنى الصفحات : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

عـادت لـه أيـامـه مُسْوَدّة حتـى تـوهـم انهـن ليـالـي

قال له الحسن بن رجاء «والله لا تسودُّ عليك بعد اليوم» (١) . وقد بلغ اعجاب الحسن بن رجاء قمته لما أتى ابو تمام على بيتيه :

لا تنكري عطـل الكريم من الغنى فالسيل حـرب للمكـان العالـي
وتنظري خبـب الركاب ينـصُّها مُحيي القريض إلى مميت المال

إذا اقسم الممدوح اليمين الا يتم ابو تمام قصيدته الا وهو قائم ، فقام ابو تمام لقيام ممدوحه واكمل القصيدة حتى اذا جاء على نهايتها تعانقا معاً وجلسا . إذن فصور من هذا القبيل يستفاد منها في خطابات اخرى غير الخطاب النقدي لكن ما يمكن عده من صميم القول النقدي ما جاء في هذا الفصل من التفاتة هامة من الصولي إلى علاقة الدين بالشعر ، اذ ردّ على بعض العلماء الذين يتخذون هذه القضية سلاحاً يشهرونه في وجه ابي تمام لتجريحه والحط من قيمته ، واعتبر ان الدين بمعزل عن الشعر يقول : «وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه ، وجعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره ، وتقبيح حسنه ، وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر ، ولا ان ايماناً يزيد فيه» (٢) .

ويتبع الصولي هذا الفصل الخاص بالاخبار بفصلين صغيرين يمتد اولهما من الصفحة«٢٣٤»إلى الصفحة«٢٤٣»والثاني من الصفحة «٢٤٤» إلى الصفحة «٢٤٨» . وهما فصلان يبدو ان الصولي يحاول من خلالهما ان يظهر بمظهر الناقد العادل الذي يأتي على ذكر عيوب شاعره كإتيانه على ذكر محاسنه . والحق ان الصولي ابعد ما يكون عن النهوض بهذه المسؤولية . فالفصل الاول الذي خصصه لأخبار ابي تمام مع مخلد بن بكار الموصلي ، وركز فيه على اشعار يهجو فيها هذا الأخير ابا تمام هجاء ينال من اصله ونسبه ، لم يعترف

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ١٦٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٢ .

الصولي لمخلد هذا باصالته وجدته في هذا اللون من الهجاء ، وإنما جعله مسبوقاً اليه وبذلك ينزلق الصولي من ذكر عيوب صاحبه إلى ذكر عيوب خصم صاحبه (١) .

وفي الفصل الثاني اكتفى بذكر بعض ما روي من عيوب ابي تمام ، غير اننا إذا تتبعنا هذه المرويات نجد الصولي قد انتقاها انتقاء لا يذهب إلى تجريح ابي تمام . ذلك ان العبارات التي ورد فيها ذكر هذه العيوب كثيراً ما تكون مسبوقة بالاستحسان حتى لتغدو تلك العيوب باهتة خافتة امام الحسنات . وعموماً فهذان الفصلان القصيران لا يعدوان ان يكونا بمثابة «حبة رمل في بحر» . فما اصغر حجمهما بالمقارنة مع الحجم الذي خصص لذكر محاسن ابي تمام ، وما اكثر التباس وغموض عباراتهما في مقابل وضوح عبارات الفصول الخاصة بالمحاسن . وسرعان ما ينتقل الصولي إلى فصل لاحق عاد فيه إلى تمجيد صاحبه ابي تمام مركزاً هذه المرة على ما لابي تمام من روايات يرددها في المجالس ، ومعظم هذه الروايات من قبيل مأثور الكلام الذي يلذ سماعه ويجمل ترديده . والظاهر ان الصولي لم يكن يهدف إلى رصد هذه الخصلة ، وإنما كان يريد ان يعقد بما لصاحبه من المام ودراية ودربة بما عرف بالمذهب الكلامي وذلك من خلال العبارات والفقرات التي رواها من هذا اللون . ويؤكد محمد مندور هذه الحقيقة بقوله : «والواقع ان ابا تمام لم يكن غريباً عن مباحث المتكلمين ومناهجهم في التفكير . ولدينا في كتاب «اخبار ابي تمام» للصولي فصل هام بعنوان «ما رواه ابو تمام» يثبت ذلك . وهو فصل اقرب إلى التفكير الفلسفي الذي يعتمد على العبارة اكثر من اعتماده على الفكرة في ذاتها . وابو تمام هو الذي ينقل هذه الاقوال مما يدل على حرصه على امثالها.. وهذه كلها اقوال تدل على المهارة في التعبير واللعب على الافكار اكثر من

(١) الصولي : اخبار ابي تمام . من ص ٢٣٤ إلى ص ٢٤٣ .

دلالتها على اصالة الفكر وقدرة على الخلق او إصابة الحق او الحرص عليه ، وهي قريبة باقوال المتكلمين وفلاسفة المنطق الشكلي» (١) .

ويردف الصولي هذا الفصل بفصل آخر عن صفة ابي تمام واخباره مع اهله . وليس في هذا الفصل مما يمس الجانب الادبي الصرف ما يستحق الوقوف عنده فقد اكتفى الصولي بذكر صفات ابي تمام وسماته وقسماته وما جاء لأخ له يقال له سهم وابن يقال له تمام من شعر يتأرجح بين الرداءة والتوسط . ثم ينتهي الكتاب بفصل يتدارك فيه الصولي بعض اخبار ابي تمام سماه «اخبار لابي تمام متفرقة» وهو فصل كما يرى مصطفى الشكعة : «تحايل منهجي إن لم يكن مقبولا موضوعاً فهو طريف شكلا» (٢) .

من خلال ما تقدم يتبين ان الموقف النقدي الذي حاول الصولي ان يؤسس له قد امتصته الأخبار ولم تبق منه الا ارهاصات قليلة تضمنتها المقدمة . ومن ثم يصح القول ان المقدمة جاءت منفصلة من حيث الطرح عن بقية متن الكتاب. فالمتن إخباري صرف في حين ان المقدمة وان اعترتها بعض سمات الخطاب الاخباري تكشف عن موقف نقدي يسعى إلى التشكل لكنه في عمومه ظاهر التعصب والانتصار المعلن لابي تمام وابعد ما يكون عن روح الناقد الموضوعي مما يحول دون ارتقائه إلى مستوى الطرح الناضج لقضية القديم والمحدث التي كانت بمثابة الفكرة / المحور . وهذا ان دل على شيء ، فإنما يدل على ان «اخبار ابي تمام»لا يرقى ليكون اول بيان في الحداثة كما ادعى ذلك «ادونيس»(٣). لانه لا يقدم ولا يناقش الخصائص الفنية للحداثة الشعرية كما يمثلها ابو تمام ، في وقت سنجد ان كتاب «الموازنة»الذي يعد بياناً لاتجاه عمود الشعر يقدم ويناقش كثيراً من خصائص الحداثة الشعرية لكأنه اعلم بهذا الاتجاه من اصحابه.

(١) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب . ص ٦٦ — ٦٧ .
(٢) د. مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العرب . ص ٢٦٤ .
(٣) ينظر كتاب «الثابت والمتحول» ج ١ «تأصيل الاصول» ، ص ١٧٨ .

بل ان مما يقلص حظوظ «اخبار ابي تمام» كي يكون اول بيان للحداثة كونه كتاباً في الاخبار اكثر منه كتاباً في النقد ، بالرغم من مقدمته التي تبدو فيها بعض ملامح الخطاب النقدي ، لكنها ملامح تعتريها سلبيات عديدة .

ملامح الخطاب النقدي في «مقدمة» اخبار ابي تمام .

إذا كانت العملية الابداعية جد معقدة باعتبار ان المبدع متعامل مع عالم رحب وواسع ، فإن العملية النقدية اكثر تعقيداً باعتبار ان الناقد يتعامل مع عالم مغلق من الرموز محاولا فهمه وتفسيره وتقريبه ، باحثاً عن دلالة وعن معنى . فإذا كان المبدع يسائل العالم ويقدم رؤية معينة ، فإن الناقد يسائل الصياغة الاشارية والرمزية لذلك العالم و حتى يكتسب العمل النقدي مشروعيته فلا يكفي صدوره عن ذوق الناقد وانطباعه الخاص ، بل لا بد له من منهج ينتظمه ومصطلح يغذيه . فليست العملية النقدية عملية انطباعية وإنما هي عملية تحتاج — كما اسلفنا — إلى منهج ومصطلح ان لم يكونا علميين دقيقين ، فإلى روح الموضوعية ينبغي ان يكونا اقرب .

لقد وجد الصولي نفسه امام ظاهرة ابداعية جديدة او قول شعري جديد هو الشعر المحدث والسؤال الذي ينبغي طرحه هو : كيف بحث الصولي في اسس قبول هذا القول الشعري الجديد ؟ وبم وكيف برّر هذا القبول ؟

سبق ان تقدم ان كتاب الصولي جاء في وقت اختلفت فيه آراء الناس بصدد شعر ابي تمام وانقسامهم فئتين: فئة معه وهم قسمان قسم «يوفيه حقه ويعطيه موضعه من الرتبة»(١) وقسم يبالغ في مدحه ويفرط في الثناء عليه فيجعله نسيج وحده وسابقاً لا مساوي له» (٢) .

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤ .

والفئة الثانية ضده ترذل شعره وتعيبه وتجعله مقلداً او مدعياً . فهذا الموقف غير العادل ، وان كان يقدم لنا الشروط الموضوعية لتأليف هذه الرسالة / المقدمة وهذا المتن . فإنه من جهة اخرى يكشف لنا عما آل اليه الذوق العربي من تصدع واختلاف بصدد قول شعري جديد هو الشعر المحدث ، وبالتالي يصير حافزاً لتشكيل وتبين خطاب نقدي . غير ان الصولي يصرح — منذ البداية — بانحيازه إلى ابي تمام : «وأذكر جميع ما قيل فيه وان كان قصدي تبيين فضله ، والرد على من جهل الحق فيه» (١) . وبذلك يُغيّب اهم عنصر من مكونات العملية النقدية والمتمثل في تحكيم الموضوعية ، وسيكون لتغييب هذا العنصر اثر بالغ في اضطراب منهج الصولي النقدي — ان سلمنا له بوجوده . وتتجلى ملامح هذا الاضطراب في : آ — سطحية اسس المفاضلة النقدية . ب — فساد الذوق النقدي واضطرابه . جـ — غياب تحديد خصائص القول الشعري الجديد (الحداثة الشعرية) وما رافق ذلك من ضحالة المصطلح النقدي .

آ — سطحية اسس المفاضلة : ان يفاضل الناقد بين شاعرين ويقدم احدهما على الآخر ظاهرة صحية في الخطاب النقدي. غير ان هذا التفضيل والتقديم ينبغي ان يقوم على اسس موضوعية . وقديماً فاضل النقاد وعلماء الشعر بين الشعراء وقدموا بعضهم واخروا البعض الآخر . وقد برروا لمواقفهم بتبريرات مختلفة فابن سلام الجمحي مثلا فاضل بين الشعراء وصنفهم وقدم بعضهم واخر البعض الآخر بناء على مباديء محددة منها الفحولة ، وتقارب كل اصحاب طبقة في اشعارهم ، ومبدأ الكم . وهي المباديء التي شكلت مفهوم الطبقة عنده. وابن قتيبة وإن لم يخضع الشعراء الذين ترجم لهم لترتيب

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٥ .

معين ،لم يخف في مقدمته ثورته على المقياس الزمني اساساً للتفضيل والتقديم يقول : «ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل على الفريقين واعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه» (١) . فابن قتيبة يحاول ان يحكم ما يمكن ان نصطلح عليه بالمقياس الفني القائم على الاهتمام بالشعر من حيث جودته ورداءته ، وهو مقياس ناضج وإن لم تتبلور فاعلية ممارسته في متن كتابه . والنتيجة التي ينتهي اليها كل باحث هي غياب الناقد الذي بنى تفضيله وتقديمه للشعراء على اسس موضوعية صرف ، ولم يشذ الصولي نفسه عن هذه القاعدة . ففي مقدمة فقرات تكشف عن عدم تبنيه لمقاييس موضوعية مضبوطة في التفضيل والتقديم . من ذلك ما ذكره اثناء حديثه عن تأليفه لأخبار الفرزدق حيث قال : «وإنما بدأت بالفرزدق لشرفه ، وقوة اسر كلامه ، وكثرة معانيه ، وجميل مذهبه ؛ فإنه كان مائلا في دولة بني أمية إلى بني هاشم ، مجاهر بفضلهم وتقديمهم» (٢) . فالشرف ، وقوة اسر الكلام ، وكثرة المعاني ، وجميل المذهب مقاييس فضفاضة وعائمة لا يمكن حصر معانيها ودلالتها ، ومن ثم تفقد قيمها النقدية لانها لا تستند إلى قوانين ضابطة .فالشرف قد يكون شرف النسب ،وهذا المعنى لايخدم الخطاب النقدي ، بل الذي يخدمه هو ارتباط مقولة الشرف «بالمعنى» إذ ذاك يأخذ التعبير دلالته وقيمته النقدية المتعارف عليها عند النقاد ، وتكون نظرية عمود الشعر مرجعيتها . أما تعبير «قوة أسر كلامه» فلا غرو أنه يعني به حسن السبك وصحته ومتانته ، ولكن هذا التعبير لم يرق إلى درجة التعبير الاصطلاحي الذي إذا ذكر دل على معنى محدد تواضع عليه النقاد .

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠ .
(٢) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ١٢ .

وتصادفنا في المقدمة أيضاً فقرة أخرى تكشف عن اضطراب أسس التفضيل وذلك في قوله تبريره اختيار ابن الرومي : «وإنما جئت بابن الرومي لانه ممن رأيت وشاهدت ، وهو أقرب المتحسنين عهداً ، وآخرهم موتاً »(١) . فمقياس اختيار ابن الرومي والمجيء به حسب هذا النص هو المشاهدة وتأخر الوفاة ، والسؤال هو متى كان هذان العنصران أساساً لتفضيل الشعراء أو تأخيرهم ، أو لم يحمل ابن قتيبة على علماء عصره ممن كانت نظرتهم كنظرة الصولي ورد عليهم بقوله الشهير ، «ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره» (٢) . فالصولي . إذن — لم يطور المقاييس النقدية في التفضيل والتقديم ، ولم يستطع ان يؤسسها تأسيساً موضوعياً ، بل الأكثر من ذلك أنه كان انتكاسة لبعض القيم النقدية التي كانت في طريق التأسيس الموضوعي .

ب— أما عن فساد الذوق النقدي واضطرابه فتتجلى مظاهره في :

١ — مقارنة الرديء بالرديء : ففي تعليق الصولي على من عابوا قول ابي تمام : مازال يهذي بالمواهب دائباً حتى ظننا أنه محموم .

قال : فكيف لم يسقطوا أبا نواس بقوله في العباس:

جدت بالاموال حتى قيل ماهذا صحيح

والمحموم أحسن حالاً من المجنون (٣) . والحق أن كلا المعنيين باطل وفاسد لأنه بالغ الافراط في تشبيه الجود والعطاء حتى لينقلب المدح إلى عكسه وهو تشبيه مذموم في طريقة العرب فقد عده أبو هلال العسكري من رديء المبالغة ، قال : ومن رديء المبالغة قول ابي تمام :

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٢٥ .
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠ .
(٣) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٣٢ .

مازال يهذي بالمكارم والعلا حتى ظننا أنه محموم

أراد أن يبالغ في ذكر الممدوح باللهج بذكر الجود ؛ فقال : «مازال يهذي فجاء بلفظ مذموم ، والجيد في معناه قول الآخر : (عبيد الله العنبري) :

ماكان يعطي مثلها في مثله إلا كريم الخيم أو مجنون

فقسم قسمين : ممدوحاً ومذموماً ليخرج الممدوح من المذموم الى الممدوح المحمود(١)،وأما عبدالقاهر الجرجاني فقد عده مظهراً من مظاهر فساد ذوق ابي تمام يقول ، ولم يحتشم أنه قال :

مازال يهذي بالمكارم والعلا حتى ظننا أنه محموم

فجعله يهذي وجعل عليه الحمى وظن أنه اذا حصل له المبالغات في إثبات المكارم له وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره حتى لايصدر عنه غيرها ،فلا خير أن يتلقاه بمثل هذا الحطاب الجافي (٢) . في عدم القدرة على تحسس الوظيفة الجمالية لبعض الاستعمالات الشعرية كدلالة الماء في بيت ابي تمام :

لاتسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

فقد اكتفى بمقارنته بقول ذي الرمة

أن ترسمت من خرقاء منزله ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقوله أيضاً :

أداراً بحزوى هيجت للعين عبرة فما الهوى يرفضّ أو يترقرق(٣)

وانتهى إلى حكمه فما يكون أن استعار ابو تمام من هذا كله حرفاً

---

(١) ابو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ص ٣٨٠ .

(٢) عبدالقاهر الجرجاني : اسرار البلاغة ، ص ٢٢٠ .

(٣) ومن الابيات التي ادرجها الصولي ايضاً في مقارنته هذه ، قول الشاعر عبدالصمد بن غيلان :

(اي ماء لماء وجهك يبقى بعد ذل الهوى وذل السؤال) ، وكذا قول ابي العتاهية :

(ظبي عليه من الملاحة حلة ماء الشباب يجول في وجناته) ، وكذا قول احمد بن ابراهيم

(اهتف ماء الشباب يرعد في خد يه لولا اديمه قطرا) . اخبار ابي تمام ص : ٣٤ — ٣٥.

فجاء به في صدر بيته ، لما قال في آخره : «فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي» قال في اوله : «لا تسقني ماء الملام» ؟ وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوي معناه» (١) . وعلل لهذا الحكم بآيات من القرآن الكريم، ناسياً الوظيفة الجمالية التي يزخر بها هذا البيت والتي تستمد شاعريتها من الاستعارة الحسنة في قوله «ماء الملام» وهو ما سيلتفت اليه صاحب «الموازنة» حيث اعتبر البيت من حسنات الشاعر «ابي تمام» ورد على من عابوه بل ويبدو في رده ايضاً انه يشير كذلك إلى المقارنة التي عقدها الصولي بين قول ابي تمام وبين بيت ذي الرمة الاول ، فقال : «وقد احتج محتج لابي تمام في هذا (ويعني بيت ابي تمام : لا تسقني ماء الملام ... البيت) بقول ذي الرمة

ادارا بحزوى هيجت للعين عبرة فماء الهوى يرفضّ او يترقرق

... وهذا لا يشبه ماء الملام ؟ لأن ماء الملام استعارة ، وماء الهوى ليس باستعاره» (٢) .

جـ — إن «ناقداً» كالصولي الذي يعد اكبر المدافعين عن مذهب ابي تمام والمنتصرين له ، كان حرياً به ان يقدم بين يدي قارئه خصائص مذهب شاعره المفضل . لكن المقدمة خلت من اية اشارة لذلك ، باستثناء ماجاء على لسانه في اثناء تجريحه لعائبي ابي تمام حيث يقول : «ومنزلة عائب ابي تمام — وهو رأس في الشعر مبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه حتى قيل : مذهب الطائي ، وكل حاذق بعده ينسب اليه ويقضي أثره — منزلة حقيرة يصان عن ذكرها الذم ويرتفع عنها الوهْدُ» (٣) . فما هي خصائص ومقومات هذا المذهب الشعري ، وكيف عرضها الصولي ودافع عنها بمنظور

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٣٥ — ٣٦ .
(٢) الآمدي : الموازنة ، ج ١ ص ٢٧٨ .
(٣) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٣٢ .

الناقد ؟ اشياء لا نجدها في مقدمة الكتاب ولا في متنه . وهذا ما يزيد تأكيداً ان الصولي كان بعيداً عن ان يكون «ناقد النص» ما عدا موقفه من قضية السرقات الأدبية التي وان كان يهدف من ورائها دفع التهمة عن شاعره ، الا انه استطاع — مع ذلك — ان يقدم تصوراً ناضجاً للقضية على انها ليست شيئاً مذموماً ، بل ويفهم من قوله الذي يلخص موقفه من القضية : «وليس احد من الشعراء — اعزك الله — يعمل المعاني ويخترعها ويتكىء على نفسه فيها اكثر من ابي تمام ؛ ومتى اخذ معنى زاد عليه ، ووشحه ببديعه ، وتمم معناه فكان احق به، وكذلك الحكم في الاخذ عند العلماء بالشعر» (١) . انها قضية مرتبطة بما هو بلاغي اكثر من ارتباطها بما هو نقدي ، وهذا شيء وارد في الدرس الادبي عند العرب ؛ فقد جرت العادة عند بعض البلاغيين ان يجعلوا قضية السرقات الأدبية آخر مبحث من مباحثهم البلاغية (٢) . فالقضية اذن — عند الصولي مرتبطة اساساً بالمعاني من حيث هي مخترعة (يعمل المعاني ويخترعها) او من حيث هي مولدة(ومتى اخذ معنى زاد عليه ، ووشحه ببديعه) والمخترع من الشعر كما يقدمه لنا ابن رشيق هو «ما لم يسبق اليه قائله ولا عمل احد من الشعراء قبله نظيره او ما يقرب منه» (٣) . وقد كان شعر ابي تمام حافلا بالمخترع . اما التوليد فهو «ان يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، او يزيد فيه زيادة ؛ فلذلك سمي التوليد ، وليس بالاختراع لما فيه من اقتداء بغيره ، ولا يقال له ايضاً «سرقة» إذ كان ليس آخذاً على وجهه» (٤) .

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٥٣ .
(٢) ينظر بهذا الصدد كتاب «الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة » لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني (١٢٩) ، وكتاب «الايضاح في علوم البلاغة» للقزويني ٧٣٩ (ه)
(٣) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ٢٦٢ .
(٤) ابن رشيق : العمدة ج ١ ص ٢٦٣ .

ولعل هذا المنظور الذي يقدمه الصولي للقضية هو الذي جعل المصطلح النقدي الذي يخدمها يتسم — من جهة ، بالتهذيب ؛ ذلك ان مصطلح السرقة يتضاءل في استعمال الصولي امام مصطلح «الأخذ» باعتبار ان «دلالة المصطلح الثاني اقل صرامة» (١) . كما ان هذا المنظور جعل المصطلح النقدي يتسم — من جهة اخرى — بالوضوح والانسجام وهذا ما يستخلص من قول الصولي في نصه السابق : «احق به» اذ ان هذا التعبير يرقى إلى مستوى المصطلح النقدي بالطريقة التي يقدمها به حازم القرطاجني بقوله : «فإن زاد المتأخر على المتقدم زيادة في المعنى مع تحسين اللفظ فقد استحق المعنى عليه» (٢)، وجعل الاستحقاق مرتبة من مراتب الشعراء : «فمراتب الشعراء فيما يلمون به من المعاني اذن اربعة : اختراع واستحقاق وشركة وسرقة» (٣) .

وتمدنا المقدمة كذلك بمصطلحات أخرى متعلقة بقضية السرقات الادبية او الاخذ ، اهمها مصطلح الالمام والنقل . وهما مصطلحان وإن كان يصعب تحديد دلالتهما الا اننا حين نقابل بين استعمال الصولي لهما والتحديد الذي يقدمه ابن رشيق نجد بينهما تطابقاً كبيراً . فالصولي يوظف مصطلح النقل في تعليقه على بيتي ابي تمام :

وركب كأطراف الاسنة عرسوا على مثلها والليل داج غياهبه
لأمر عليهم ان تتم صدوره وليس عليهم ان تتم عواقبه (٤)

ويقول : «وكأن هذين البيتين نقلا من قول «ابن ابي» انشدناه احمد بن يحيى :

---

(١) وهذا ما يراه الدكتور أمجد الطرابلسي بخصوص مصطلح «الاخذ» في كتابه «النقد الشعري عند العرب حتى القرن الخامس الهجري» ص ١٩٢ .
(٢) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ، ص ١٩٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .
(٤) ورد البيتان في أخبار ابي تمام للصولي ص ٥٣ — ٥٨ . وفي شرح الخطيب التبريزي لديوان ابي تمام ج ١ ص ٢٢٢ (.... على مثلها والليل تسطو غياهبه)

غـلام وغى تقحمهـا فـأبـلى فخـان بـلاءه دهـر خؤون

وكـان عـلى الفتى الاقدام فيها وليـس عليه ما جنت المنون» (١)

فاذا كان ابن رشيق يحدد نقل المعنى او ما يسمى بالاختلاس بأنه تحويل المعنى من نسيب إلى مديح (٢) . فإننا حين نتدبر بيتي «ابن ابي» وبيتي ابي تمام سنجد ان الاخير اختلس او نقل المعنى من غرض إلى غرض آخر . فبيتا «ابن ابي» فيهما نوع من الرثاء والتفجع لحال الفتى المقدام الذي جنت عليه المنون وبذلك فالغرض الذي يمكن ان يندرجا تحته — ان صح التصنيف — هو غرض الرثاء ، في حين ينصرف بيتا ابي تمام إلى التمجيد والمدح ومن ثم فهما بيتان في المديح . بمعنى ان ابا تمام اختلس معنى «ابن ابي» او نقله . والملاحظ ان بعض النقاد العرب لم يكونوا ينظرون إلى هذه العملية نظرة قدح وازدراء ، وإنما اعتبرها سبيلا فنياً لا خفاء الأخذ ، وانها لا تتأتى الا لحذاق صنعة الكلام او لمن سماه ابو هلال العسكري : «المبرز والكامل المقدم» (٣) وقد ادرجها احد النقاد المحدثين ضمن مبحث خاص سماه «الاخذ الفني» (٤)

اما مصطلح «الالمام» فقد ورد ذكره في مقدمة الصولي في اثناء رده على عائبي بيت ابي تمام :

ما زال يهـذي بالمـواهب دائبـا حتى ظننـا انـه محمـوم

حيث تساءل : «... ولم لم يعيبوا قول الآخر :

بطـل تنـاذره الكمـاة كـأنـه مما يدل عـلى الفوارس احمـق

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٥٣ .
(٢) ابن رشيق : العمدة ، ج ١ ص ٢٨٢ .
(٣) ابو هلال العسكري . كتاب الصناعتين ، ص ٢٠٤ . وينظر كذلك راي الحاتمي في «حلية المحاضرة» نقلا عن تاريخ النقد الادبي عند العرب » لاحسان عباس ، ص ٢٦١ .
(٤) د. بدوي طبانة : السرقات الادبية ، ص ١٨١ وما بعدها .

فصير افراطه في شجاعته كفعل الاحمق الذي لا يميز . وقـد قال عبيدالله العنبري قبل ، فألم بهذا المعنى الا انه قسمه :

ما كـان يعطـى مثلها في مثلـه الا كريم الخيم او مجنون» (١)

فحين نغوص في معنى البيت الذي الم فيه الشاعر الثاني بمعنى بيت الشاعر الاول ، سنجدهما معاً متساويين في تصوير الافراط في الشجاعة والعطاء حتى يقارب حالة غير طبيعية ، ولكن اللفظ غير مساو فالحمق غير الجنون (٢). وعلاقة من هذا النوع يتساوى فيها المعنيان دون اللفظ هي ما يطلق عليها مصطلح النظر والملاحظة او الالمام (٣) .

من خلال ماتقدم يتبين أن الصولي كان مهتما بالشاعر واخباره أكثر من اهتمامه بالقول الشعري.ولم تنفعه ثقافته كشاعر وعالم بالشعـر وكاتب بليغ وراوية حافظ للمعاني الكثيرة ومطلع بتبصر ونضج عما اسماه اخذ الشعراء وسرقاتهم ، وهي الصفات التي كان يتطلبها الصولي في ناقد الشعر . لم تنفعه هذه الثقافة في تأسيس خطاب نقدي يمكن بواسطته ان يحدد سمات وخصوصيات القول الشعري الجديد او يبرر اسس قبوله . وحتى اذا حاول مقاربة النص والاشتغال عليه ، جاء ذوقه فاسداً ومنهجه مضطرباً . وتلك امور باعدت بينه وبين ان يكون ناقد النص ، وجعلته إلى صف الاخباريين اقرب منه إلى صف النقاد .

---

(١) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٣٣ .

(٢) ينظر في دلالة الجنون والحمق وصفات كل معنى في كتاب «فقه اللغة» لابي منصور الثعالبي ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٣) ينظر «العمدة» لابن رشيق ج ١ ص ٢٨٢ .

فهرست المصادر والمراجع

- ابو بكر الصولي ناقداً ، صبحي ناصر حسين ، دار الجاحظ ، بغداد ، ١٩٧٥ .
- اتجاهات النقد الادبي في القرن الرابع للهجرة ، احمد مطلوب ، وكالة المطبوعات ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٣ .
- اخبار ابي تمام ، ابو بكر الصولي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، بلا .
- اسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، دار المعرفة، بيروت ، ١٩٨٢ .
- الاشارات والتشبيهات في علم البلاغة ، محمد بن علي بن محمد الجرجاني ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، بلا .
- الأيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، منشورات دار الكتاب ، لبنان ط٥ ، ١٩٨٠ .
- تاريخ النقد الادبي عند العرب ، احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت، ط٣ ، ١٩٨١ .
- الثابت والمتحول ، ادونيس ، دار العودة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ .
- الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام تاريخها وتطورها واثرها في النقد العربي ، محمود الربداوي ، دار الفكر ، مصر ، بلا .
- ديوان ابي تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، دار المعارف ، مصر ط٣ ، ١٩٥١ .
- السرقات الادبية ، دراسة في ابتكار الاعمال الادبية وتقليدها ، بدوي طبانة ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٤ .
- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الثقافة ، بيروت ، بلا ،

— الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، جابر عصفور ، دار التنوير ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٣ .
— العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، دار الجيل ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨١ .
— فقه اللغة ، ابو منصور الثعالبي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ١٩٨١ .
— الفهرست ، ابن النديم ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٤ .
— كتاب الصناعتين ، ابو هلال العسكري ، م عيسى البابلي الحلبي ، مصر ، بلا .
— معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، دار المستشرق ، بيروت ، بلا .
— معجم الشعراء ، المرزباني ، مكتبة النوري ، دمشق ، بلا .
— مفهوم الشعر عند العرب كما يصوره كتاب الموازنة للآمدي ، عبدالقادر القط ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٢ .
— مناهج التأليف عند العلماء العرب ، مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٢ .
— مناهج البلغاء ، حازم القرطاجني
— الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، الآمدي ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٩٧٢ .
— النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ، دار النهضة ، مصر ، بلا